مجلة الرائد

العدد : ١٨٥ الموافق في رجـــب ١٤١٧ هجري ١٢ / ١٩٩٦ ميلادي

مقالات في المنهج : الأمـــــــــــــة والخروج من المأزق	بقلم : د. المنذر بن سعيد

يقول الدكتور طه جابر علوان : أمتنا المسلمة تفتقد « الفاعلية » وأنظمتها تفتقد « الفاعلية والشرعية ». أمة هذه حالتها - نظاماً وشعباً - كيف يمكنها أن تخرج من واقعها لتحقيق التغيير ؟

لقد طرح « العمل » الإسلامي ثلاثة مداخل : المدخل التربوي ، والمدخل الفكري ، والمدخل السياسي... يقول الدكتور طه : وإن الصلة بين هذه المداخل لا بد منها ، وإن الإسلام ما نجح في شيء نجاحه بملاحظة « مدخل التوازن » وتوظيفه وتحويله إلى طاقة وفاعلية... ولو أدرك الناس ما في الإسلام من « بُعد التوازن » لما وجدنا هذا التقسيم... فلا بد من النظرة الشمولية التي تسمح بتعدد « المداخل » و « توازن » فيما بينها لتحقيق التغيير المطلوب.

لماذا فقدت الأمة هذا « التوازن » الذي يشكل « بُعداً » منهجياً - في حياة الرسول ﷺ يعبر عنه « بالتوسط » أو « بالاعتدال » ؟

لقد بدأت الأمة تفقد « بعد التوازن » يوم افترق الناس أول ما افترقوا على « حق » الإمامة ، فساهم بدء ضعف « فكرة التوازن » بترقي فكرة « الأحادية » - فكرة المصوِّبة والمخطِّئة وما لها من أبعاد سلبية ساهمت في معاناة إنسان العصر - ، وإن الخروج من هذه الحالة هي مهمة تستدعي تضافر « مداخل » عديدة و « وسائل » متنوعة بشكل متوازن تشكل - لأن واقعنا لم يعد مشكلة خاصة - مع وجود « اللحظة التاريخية » المناسبة من زمان ومكان وظرف دولي بروز « الشهود الحضاري ».

وحتى تمتلك الفاعلية أمةٌ فقدتها لا بد من تحقق « شروط » الوعي و « قوانين » الوعي وهي :

١- إدراك خصائص الأمة الذاتية.

٢- إدراك شروط الوعي فيها.

٣- إدراك قوانين الوعي الخاصة والمشتركة.

٤- إدراك خصائص العالم الذي نحيا فيه.

٥- إدراك خصائص الوقت.

٦- إدراك خصائص الرسالة التي تحملها (وهي جزء من خصائصها الذاتية).

أولاً - خصائص أمتنا الذاتية : نحن أمة « قراءة » ، أمة « تأليف » ، أمة « مُخرَجَة » ، أمة « قطب ».

١- نحن « أمة » تكونت في دائرة « قراءة » فالانطلاق من غير القراءة... الانطلاق من مدخل يتجاوز القراءة يتنافى وخصائص تكوين هذه الأمة... خاصية « القراءة » لو جرى تجاوزها ليسلك في « الإصلاح » شيء أخر لا يعتمد على هذا « المدخل » فإنه من الصعب جداً أن تحدث حالة الوعي.

بدأ الإسلام بكلمة « اقرأ »... فنحن مأمورون بقراءتين... قراءة في الوحي وقراءة في الوجود.

٢- الخاصية الثانية أننا كأمة اعتمد في تكوينها « مدخل تأليف » وليس « مدخل توحيد » { **إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم** } فالتأليف يحافظ على « الخصوصيات » ويوجد حالة « تعاون » أو « اشتراك » في تحقيق الأهداف المشتركة... بينما « مدخل التوحيد » يقضي على الخصوصيات ويحدث حالة «دمج» أو « صهر »... فمن الذي يقول إن الإسلام يرفض ويقتل هذه الخصائص الذاتية من أجل خاصية أخرى ، وهو الذي تحدث عن { **اختلاف ألسنتكم وألوانكم...** }.

إن إدراك « مدخل التأليف » مهم جداً ، لأن فكرة « الصهر والدمج » لا زلنا نتبناها. وإذا لاحظناها كمدخل في ثقافتنا نجد أنها مدخل لتبرير كثير من عوامل الطغيان و « الدكتاتورية ».

٣- الخاصية الثالثة هي أننا أمة « مُخرجَة » { **كنتم خير أمة أخرجت للناس...** } لأننا أمة تحمل رسالة إلى العالم { **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** }... أمة مخرجة غرضها تبليغ الدعوة وتقديم النموذج... نحن لسنا أمة « مُدخلة » { **ادخلوا الأرض المقدسة...** } فالوطنية والقومية تصبح حافزاً خافتاً جداً ، لأننا في دائرة الأمة « المخرجة » تصبح « الدار » هي الأساس وليس « الوطن ».

٤- والخاصية الرابعة أننا أمة « استقطاب » أو أمة « أمم » ولسنا أمة « مركز » إننا أمة مفتوحة ينضم إليها كل الناس (عرب ، فرس ، أمريكان...) تحافظ لهم على خصوصياتهم دون أن تسمح بأن يكون هناك « مركز » يهيمن على الآخرين... فالبعد القومي مطلوب بشرط ألا يتجاوز مرحلة الحفاظ على خصائص ذاتية معينة ، فإن تجاوزها إلى أن يصبح هو « المحور » أو « المركز » فأمر يخرج من خصائص هذه الأمة... إن « القومية » دائماً تدفع إلى « المركزية » فيشعر الناس أنهم أفضل من سواهم... بينما خاصية الإسلام أنه يكوّن أمة « استقطاب » تنطلق إلى القوميات المختلفة لاستقطابهم وتحويلهم إلى دائرة « القطبية ».

وهكذا حينما ندرك هذه الخصائص ، لا بد أن نلاحظ في الخطاب الذي نوجهه تلك الخصائص ،

وإلا فإن الخطاب لا يحقق الأثر المطلوب.

ثانيا - إدراك شروط الوعي

ليس الوعي أن يتحدث الناس أن هناك مشكلة أو أزمة لا بد لها من حلّ يلتقون تحت هذا المعنى... الوعي الذي نعنيه هو الذي يتحول إلى « دافع » فلن يسمح لصاحبه - بعد أن يحدث - ألا يتحرك. إذا كان هناك نار في زاوية الغرفة... فإن ذلك يؤدي إلى تشكيل حالة وعي بالخطر تشكل « دافعاً » فعندما تصبح « حالة الوعي » من القوة والإدراك السليم الصحيح بمستوى يشكل دافعاً للتحرك نستطيع عندها أن نسمي هذا الوعي « الوعي الصادق » أما حينما لا يتجاوز « حالة الوعي » أن نلتقي ونتحدث ونشكو ثم نفترق دون عمل شيء ، فهذا لا يدل على أن « حالة الوعي » قد حدثت... إنما هو « حديث عن الوعي ».

إن عدم إدراك خصائص الأمة الذاتية يجعل من الصعب جداً اكتشاف شروط الوعي في تلك الأمة.

ثالثاً- إدراك قوانين الوعي الخاصة والمشتركة

إن القانون الذي يُحدث وعياً في أمة ما يمكن أن يُحدث وعياً في أمة أخرى شريطة أن توجد فيها شروط الوعي... لأن حالة الوعي لا تحدث إلا إذا أدركنا كيفية الربط بين شروط الوعي وقوانينه... ممكن جداً أن نقيم مؤسسات ، نطرح كتباً ومقالات وخطباً... هذه القوانين لا تحدث الوعي إذا لم تتوفر معها شروطه... لأننا عندها لا نكون قد تحدثنا مع الأمة من خلال خصائصها الذاتية... لذا يصبح (ما امتلكناه من قانون وعي) غير قادر على تحقيق دوره.

رابعاً - إدراك خصائص العالم الذي نحيا فيه

إن خصائص عالمنا المعاصر تختلف عن خصائص العالم عند بدء الرسالة

- عالمنا لم يعد يقبل الغيبيات نتيجة سيادة النموذج الغربي... فهذا النموذج ، بسبب رفضه الغيب أصبح يطرح قيماً ومفاهيم ومصطلحات... فانفرد بالمرجعية الفكرية.
- عالمنا ذو خصائص اقتصادية لا نجدها في العالم القديم.
- وخصائص اجتماعية.
- وخصائص سياسية.
- وخصائص فنية.

- وخصائص إنسانية.
- عالمنا لا نستطيع بحال من الأحوال تجاوز (البُعد) اليهودي فيه

هذه الخصائص وغيرها تحتاج لكثير من الدراسة... حتى نصل إلى : كيف نتعامل معه ، وكيف سيتعامل معنا.

إن إدراك خصائص العالم ضرورة ملحة لأننا نريد إحداث حالة حضارية لأمة تعيش وسط هذا العالم.

خامساً - إدراك خصائص الوقت

الظرف الزماني له أهمية كبرى... هناك شيء لكل وقت (إن لله عملاً بالليل لا يقبله في النهار...) فلا بد من إدراك خصائص الوقت لنستطيع أن نربط بين كل هذه العوامل... فقد ترتب عليها أمور كبيرة جداً... هذا النظام الحضاري... ما هي آثاره الفكرية المعرفية على مستوى النظم... على مستوى الحياة السياسية والاجتماعية...

سادساً - إدراك خصائص الرسالة التي نحملها

١- أنها تعتمد على عالمية الخطاب... فقد أناطت بالرسول ﷺ مهمة توصيل الخطاب العالمي إلى البشرية... فما هي الوسائل والسبل ؟ إننا لا نستطيع الإجابة عن هذا السؤال ما لم ندرك خصائصنا وخصائص العالم من حولنا.

٢- و (حاكمية) الكتاب (القرآن والسنة) : خاصية هذا الدين أن تكون (الحاكمية) للكتاب بقراءة إنسانية غير معصومة... فالحاكم هو القرآن... يقرؤه بشر... ويحكم به بشر ؛ فهناك فرق كبير بين أن تكون الحاكمية باسم الله جل شأنه نيابة عنه (الحكم الثيوقراطي) وبين أن تكون الحاكمية لكتاب مقروء مفتوح أمام الناس كافة... يقرؤه الحاكم وغيره ، فإذا انحرف الحاكم بفهمه وتفسيره يستطيع آلاف الناس أن يقولوا له : انحرفت وأخطأت.

٣- والخاصية الثالثة : ختم النبوة بعني أن المسؤولية عن هذا الدين أصبحت مسؤولية إنسانية بشرية غير معصومة ، لا تنتظر تسديداً من الوحي ، إنما عليها أن تجتهد وتستخدم كل ما هو متاح من وسائل ومناهج.

ختم النبوة يجعل الأمة هي الوارث لمهام النبوة... وانتهت العصمة بختم النبوة إلا على مستوى الأمة « لا تجتمع أمتي على ضلالة » « عصمة عموم الأمة ».

٤- والخاصية الرابعة أن هذه الشريعة شريعة تخفيف ورحمة وليست شريعة إصر وأغلال... فأي حكم فيه نكال بعباد الله هو حكم غير شرعي... إنها شريعة قادرة على استيعاب أي نسق حضاري موجود في العالم... فيجد فيه راحته وصلاحه في الدنيا والآخرة ، كما يجد حلاً لمشكلاته.

❋ ❋ ❋

حين نعرف هذه الخصائص سوف نجد ضرورة مراجعة تراثنا وتصحيح الكثير منه ، لنعود إلى حالة التوازن التي لا بد منها بين سائر المداخل ، لتقديم تصور إصلاحي على مستوى عالمي وليس على مستوى محلي.

إن اختيار « المدخل » عندنا ارتبط برغباتنا الخاصة... أن يكون لنا شيء نفرض أنفسنا به على الآخرين... فلو استحضر العمل الإسلامي هذه الرسالة وخواصها لوجد مداخل ولم ينحصر في دائرته.

والآن عندنا شموع وإضاءات متناثرة... عندنا إمكانات وعي... فلكي تتحول إلى « فاعلية » لا يزال هناك طريق لا بد من سلوكه... فالحوار مطلوب بين العاملين للإسلام ليفقهوا طريق الوعي ؛ فتظهر لهم « المداخل » التي يمكن « بتوازنها » أن تحدث مع الزمن التغيير المطلوب...

إن عملية التراجع التي حدثت في الأمة أكبر بكثير مما تصوره العمل الإسلامي... عندنا مواقع تقدمنا فيها... نعم... لكن هناك مواقع تراجعنا فيها على مستويات كبيرة... فالحساب حتى يكون دقيقاً لا بد أن نرى تقدمنا وتراجعنا ونوازن بدقة بينها لنقول هذه حصيلتنا... ثم من خلال فقهنا لرسالتنا ولخصائص أمتنا وللعالم المحيط بنا... سنرى أن بين « المداخل » نوعاً من التكامل لا بد أن نحدثه بتوازن يسمح بتوظيف كل من هذه المداخل بحسبها.

« **قبسات من محاضرة الدكتور طه جابر العلواني { الأمة والخروج من المأزق } بتصرف** ».

❁ ❁ ❁